حين تحولت المدرسة الى بركان ملتهب!

النظام الساقط كدّس العتاد وتكفل الامريكيون بتفجيره

شاحنة عتاد حوّلت منطقة السيدية الى ساحة حرب!

اجراح شوقي
تصوير سمير هادي

لم يدر في بال عائلة المواطن (نجم عبد الله) حين اجتمعت لتناول فطورها صباح يوم ١٤ نيسان ٢٠٠٣ انها، وعددا كبيرا من العوائل المحيطة ببيوتها بمدرسة (المستقبل) للبنات في منطقة السيدية، ستكون في مواجهة الموت المحتم، لو لا مشيئة الله الذي نجاهم باعجوبة غدت حديث الاهالي لمدة طويلة.

شهدت الليالي الاخيرة من عمر الحرب القصير حالات اطفاء مبرمج للتيار الكهربائي تتلوها قيام مجاميع من ازلام النظام المنهار بتفريغ شاحنات محملة بالعتاد والسلاح داخل تلك المدرسة المنكوبة، التي حشيت قاعاتها وروقتها ومخازنها وساحاتها بقاذفات وصواريخ وعتاد لمختلف انواع الاسلحة الخفيفة والمتوسطة، حتى بلغ عدد الشاحنات التي القت حمولة الرعب هذه، والتي اخذت تتقاطر فيما بعد ليلاً ونهاراً، نحو ١٨ شاحنة كبيرة، بينما يؤكد بعض ابناء المنطقة ان عددها تجاوز ٤٥ شاحنة!! وحين سقط النظام بعد ايام بدت المدرسة مثل بركان ليل للانفجار في اية لحظة. وتبرع الامريكان بتفجيره..

اهالي المنطقة/رحلوا.. وبقيت الجدران مقطعة الاوصال والسواد يغطي كل شيء والبيوت المتهدمة والانقاض تحكي قصة المكان..

تفاصيل هذا الحادث نسجلها كما رواها اصحاب الشأن من ابناء المنطقة الذين مازالوا يعيشون وسط الانقاض.

فان لنا بيت!

. اول المتحدثين كان السيد (محمد جبار) بيت عائلته الكبير الذي يقابل المدرسة تماماً، غدا مجرد حطام بعد ان كانت تسكن فيه خمس عوائل متكاملة الاثاث، استطاعوا الآن ترميم غرفتين بشكل مؤقت وسكنت فيهما عائلتان فقط كي لا يكونوا تحت طائلة غلاء الايجارات.

قال لنا: بتاريخ ٢٠٠٣/٤/٥ فوجئنا بقوافل من الدبابات وهي تدخل المدرسة، وتفرغ اسلحة من كل الانواع والاشكال بقيت تتوافد لمدة ثلاثة ايام ليلاً ونهاراً.. وحين سألنا اعوان النظام السابق عنها قالوا: لا شأن لكم بها! انها اوامر (القيادة)!! هل تريدون مخالفة اوامر القائد!

. وقتها كان من المستحيل ان يعترض احد على اوامر (القيادة) حتى لو وضعوا النار داخل فمه... وليس قرب بيته!

وعرفنا فيما بعد ان مخازن الديوانية تم افراغها داخل المدرسة الاكثر بعداً عن العين، كونها تقع داخل منطقة سكنية، وتجاهلوا ارواح الناس الآمنين كما هو ديدنهم دائماً..

بتاريخ/نيسان، اي بعد دخول الدبابات الامريكية بغداد، كانت المدرسة خالية من حراسها الذين فروا، ودخلها بعض الامريكان، ربما وصلتهم اخبارية من جهة ما، او انهم كشفوا ما بداخلها بأجهزتهم الحديثة.. لا تعلم بالضبط! المهم انهم وبعد تلك الزيارة ورصد ما فيها من عتاد.. وجهوا قنابلهم السريعة بواسطة الطائرات وفجروا ما فيها.

دوي الانفجار الذي كان يصم الآذان استمر من الساعة السابعة صباحاً حتى الحادية عشرة.. كان بركاناً سالت حممه ومقذوفاته النارية على محيط دائرة يقل قطرها عن الف متر. وتخيلي ما انا يمكن ان يحدث لعائلتي وبيتنا لا تفصله عن المدرسة سوى اربعة امتار فقط! الحمد لله كنا خارج البيت ولم تحدث اي وفيات لان معظم السكان رحلوا بعيداً قبل الحادث عدا بعض الاصابات الطفيفة هنا وهناك.. وحالنا كما ترين الآن.. نعيش وسط الحطام لأننا لا نملك ان ندفع مبالغ الايجارات الغالية.. وراح يجول بي داخل اروقة البيت المحطم تماماً.. خصوصاً الطابق العلوي الذي تفحم فيه كل شيء وبقي الرماد وحده شاهداً على الحدث الاليم.

لا تعويض!

قدمنا طلبات تعويض عديدة لقوات الائتلاف، اضاف السيد (محمد جبار) لكنهم ارجعوها لنا وقالوا: ان العملية كانت دفاعاً عن النفس وحماية للقوات الامريكية.. انتظروا تشكيل الحكومة الجديدة ربما تستطيع تعويضكم!

انتهى الامر عند هذا الحد.. هل ترضون بذلك؟

وهل يرضى ضمير الانسانية والعدالة في العالم اجمع بحالنا هذا؟ ومن المسؤول؟

كلماته اصابتني بالصمت ولم استطع اجابته، اذ لا تنفع الكلمات مهما كانت على تخفيف محنته.. دعوت له من القلب ان يلتفت له ذوو الامر من بلدي ومعه كل المتضررين لانتشالهم من واقعهم المؤلم..

طلائع نصاب المتضررين

عائلة اخرى وقعت ضحية الحادث ونجت منه باعجوبة، تحدث كبيرها السيد ثامر قائلاً: نحن عائلة من (٨) افراد تسكن هنا منذ (٢٠) عاماً.. كنا قد خرجنا من البيت اكثر من مرة ولكننا عدنا في يوم دخول القوات الامريكية الى بغداد، وحصول التفجير الذي استهدف المدرسة.. كان دوي الانفجار يصم الآذان، وخلع باب بيتنا من مكانه، وتحطمت اغلب جدران المنزل وابوابه التي عثرنا عليها بعد فترة على مسافة بعيدة من البيت! اتأت البيت احترق كله وعثرنا على العديد من الصواريخ المتناثرة هنا وهناك وهي لم تنفجر بعد اخبرنا بها قوات الاحتلال وتم حملها بعيداً.. حصلت بعض الحوادث لاطفال المنطقة وهم يلعبون في الساحة المجاورة للمدرسة بعد التفجير بسبب تناثر قطع العتاد والرمانات غير المنفجرة..

نحن نسكن في البيت الآن ونخشى وقوعه في اي لحظة. ولكن ما باليد حيلة! فنحن عائلة دخلها محدود والايجارات مرتفعة كما تعلمين.. وعندما سألته عن التعويض قال: سمعنا به لكننا لم نقبض فلساً واحداً.. لقد عوضوا الدور البعيدة عن المدرسة واهملوا الدور القريبة التي حصلت فيها اضرار اكثر.. ولا نعرف السبب؟!

قاطعه السيد اندراوس احد سكنة المنطقة بالقول: لقد جاء احدهم وادعى انه من جمعية للاغاثة الانسانية، جمع مبالغ من السكان.. شخصياً دفعت له (١٢) الف دينار على امل جلب تعويضات مناسبة للمتضررين، ولكنه رحل ولم يعد لحد الآن! انه رحل (نصاب)!

وخلال تجوالي بين البيوت المجاورة للمدرسة المنكوبة والتي غادرها طلابها وسكنها الخراب والدمار، جاءني احدهم وهو السيد (علي العامري) مدرس لغة انكليزية في ثانوية المتميزين، وطلب مني تسجيل قصة التعويض ونقلها لذوي الشأن لما رافقها من اغفال لحقوقهم.. وافقته وسجلت هذا حديثه كله:

. بعد حادثة التفجير بعدة ايام جاءنا شخص اسمه (زامل) قال انه معين من قبل قوات الائتلاف لتسجيل طلبات المتضررين، وفعلاً زودناه بطلباتنا، وبعد فترة قالوا لنا قدموا طلبات اخرى لشركة (سكانيا) عن طريق المحامي (ميرفي) لبيان مدى البعد والقرب عن المدرسة، ومن ثم تحديد مبالغ التعويضات. استبشرنا خيراً وانتظرنا اياماً طويلة كنا فيها نراجع بشكل مستمر لكن لا جدوى.. وسمعنا انه تم تعويض بعض البيوت التي هي بعيدة اصلاً عن موقع الحادث واهملت البيوت اللاصقة والقريبة. واخيرونا ان التعويضات انتهت واغلق هذا الملف!

قدمت اعتراضاً وقلت لهم فيه: تعالوا لتروا مدى قرب بيتي من المدرسة والاضرار الناجمة عن الحادث! لكن لا حياة لمن تنادي! لقد خسرنا من جيوبنا مبالغ كثيرة ونحن نقيم الاضرار ونلتقط الصور ونختم الطلبات ونصورها ونراجع المحامين!

* وكم بلغت الايام التعويضات للدور التي تم تعويضها؟

. لا نعرف بالضبط.. انها متفاوتة بين (١٠٠ ـ ٢٠٠٠) دولار.. وعلى العموم فقد وزعت تلك المبالغ بشكل محدود جداً ونحن نتساءل ومعي سكنة المنطقة: لماذا تم حجب قوائم الشارعين الحاذيين للمدرسة من مبالغ التعويضات وسكانهما الاحق فيها؟

ونوجه هنا وعبر جريدتكم صوتنا لكل العالم .. اين غابت الانسانية حينما اقدمت قوات الاحتلال على ضرب المدرسة وهي تعلم انها وسط حي سكني؟ وان الحرب انتهت بدخول الدبابات الامريكية الى الشوارع العراقية اما كان الاجدر بهم ان يرفعوها حفاظاً على ارواح السكان.. ولا ننسى هنا ما حصل من موقف مشابه في منطقة الزعفرانية الآهلة بالسكان حين اقدمت قوات الاحتلال على تفجير منطقة عتاد تسبب عنها سقوط الضحايا الابرياء من دون اللجوء الى اشعار سكنة المنطقة بالرحيل بعيداً عن موقع التفجير، وتذكر ان الحادث حصل بعد انتهاء الحرب.

وانا اهم بالمغادرة اشار السيد (علي العامري) الى البيت المجاور لبيته وهو محطم كلياً بشكل لا يمكن السكن فيه. وقربه وقفت امرأة حزينة صامتة.. اقتربت منها وعرفت انها تدعى (ام سهيل) تأتي كل يوم قرب حطام بيتها وتبقى حتى المساء لترحل وتأتي في اليوم التالي.. كان صمتها ابلغ من اي حديث، وما قلناه يكفي ليتحرك من في قلوبهم رحمة ويعتبهم الامر.. ونحن ننتظر..

في ( )

عطال وصديقه بطال

حسين التميمي

حين يصحو المواطن العراقي من النوم ، واذا واحد منهم (كما اظن) ، يلتجئ اولا الى التلفاز بدل ان يغسل وجهه ، ليس لأنه عاشق لعيون نانسي عجرم التي تطل علينا من شاشة روتانا مثلا (فهذا ترف لا يليق بنا الآن)، بل ليطمئن على حال اقربائه او اصدقائه في المدن الأخرى، إذ توافينا بأخبارهم المفجعة قنوات اشقائنا اللدودين من قبيل ، الجزيرة والعربية ، واذا ما كان صباحه مشرقا وسعيدا ، فسيقرأ في التايتل أخبارا عن هزة أرضية في جزر الواق واق ، وتظاهرات استنكار في كوكب زحل لمقتل قيادي كبير من روبوتات زحلكو ، دون ذكر لأي خبر عن بلده ، لأن الأخبار الجيدة والتي تخص العراق غير مدرجة على اجندة تلك القنوات ، لكن سعادته لن تدوم لأنه سيلتقي بعد قليل بطريقة أو بأخرى بزوجته وهذه ستذكره بطريقة أو بأخرى ، بضرورة مراجعة دائرته التي فصل منها في زمن الطاغية ، عسى أن يكون قرار إعادته إلى الوظيفة قد وصل ، وعلى الرغم من أن هذا المواطن يعلم أن زوجته تعلم جيدا بأن القرار لم يصل وأن عليه الانتظار لأشهر أخرى لا يعلم عددها حتى الراسخون في العلم والراسخون في الحكم ، لكنه سيؤكد لها أنه سيذهب حال تناوله الإفطار إلى الدائرة لإجراء اللازم ، وستجيبه بطبيعة الحال بأن فلانا الفلاني والذي هو على الأرجح زوج جارتنا قد عاد إلى وظيفته لأنه رجل شاطر (دفع مبلغا من المال فتمت إعادته إلى الوظيفة) وسيحاول هو أن يقنعها ككل يوم بأن الزمن قد تغير وأن الرشوة لم تعد تنفع مع موظفي هذا الزمن والمقتنعون جدا بروايتهم (لكنه سيقول لها هذه الجملة وهو يعلم بأنه يكذب لذا فهي لن تصدقه وسيضطر إلى مغادرة المنزل بمعدة خاوية) وهذا هو تحديدا المكسب الوحيد الذي ستغنمه الزوجة لأنها توفر لقمة لصغارها ، وهذا هو أيضا ما يعرفه الزوج ، لذا فإن غضبه يزول بعد ثوان من مغادرته المنزل ، سيبتسم حين يلتقي بصديقه العاطل عن العمل أيضا وسيتمنى أن يكون صديقه قد شهد السيناريو كي يكون معه في الهم سواء ، وسيمر بهما بائع الصحف وهو يعلن بصوته المبحوح عن خبر يخص المفصولين ، وسيدفعان آخر ما في جيبيهما من نقود للحصول على الصحيفة ، وهما يعلمان مسبقا بأن الخبر عبارة عن فبركة صحفية لابتزاز القراء ، لكن عودة كل منهما في المساء ومعه الصحيفة قد يضمن لهما احتراما ذا تأثير مؤقت تكفي الجرعة الواحدة منه للحصول على خيط أمل واه بالغد ، الذي ربما يكون ...خيرا

ماذا تبقى من المكتبة الوطنية ؟

أحرقت في الذكرى الثالثة والثمانين لتأسيسها! ويؤمل نقلها الى (نادي القادة) بعد تأهيله

قاسم حسوني

ثمة الكثير مما يمكن ان يقال بشأن المكتبات ودور المخطوطات والوثائق التي طالتها النيران ، فللمكتبات مافيات ولصوص من نوع آخر ، تحركهم دوافع وغايات دنيئة متعددة ، احدها استهداف ومصادرة الارث الثقافي الذي يؤرخ لحضارات عدة والسعي لمحو الذاكرة الحية لتراث عصور واجيال قطنت ارض وادي الرافدين.

وثمة دافع آخر لحرق الملفات والوثائق هو محاولة طمس واخفاء معالم جرائم الابادة والمقابر الجماعية للنظام الذي جثم على صدر الوطن اكثر من ثلاثة عقود. ولهذا الغرض او ذاك سطا مشعلو الحرائق على المكتبة الوطنية واضرموا النار فيها لمرتين خلال الحرب الاخيرة.

مشعلو الحرائق /لصوص الظلام

ولأجل التحقق مما جرى سعينا الى اللقاء بعدد من شهود العيان، فكان لقاؤنا بالسيد اركان رفيق، سألناه عن تفاصيل ما حدث، فأجاب، بعد سماعنا من وكالات الانباء عن تعرض المكتبة الوطنية للحرق يوم ٢٠٠٣/٤/١٠ هرعت بصحبة عدد من الاصدقاء في صباح اليوم التالي الى مكان الحادث. رأينا من على مبعدة الادخنة السوداء تتدفق بسحب كبيرة من النوافذ وفتحات ابواب الطابق الثاني الذي يضم الوثائق ومختلف الاجهزة ومعدات المايكرو فيلم، ولم تثمر محاولتنا لانقاذ شيء في القاعة الكبيرة ونحن نقف امام اكوام رماد الوثائق وركام الاجهزة التي احترقت تماماً، والاخرى التي كانت ذائبة مثل معدات المايكروفيلم. كانت الخسائر كبيرة، النيران لم تدع اي شيء إلا اتت عليه بما فيه الاثاث والابواب والخزائن والرفوف، ليتضح تعمد التخريب وتنفيذ الجريمة بدقة.

اما الطالب احمد خلف فقد وصف لنا احداث الحريق الآخر الذي حصل في يوم ٤/١٤ أي بعد اربعة ايام من الحادث الاول. قائلاً: بينما كانت القوات الامريكية تطوق المنطقة المحيطة بالمكتبة في ذلك الصباح استطاع هو وزميله حميد كاظم اجتياز المكان والدخول الى المكتبة. وشد انتباهه حال وصولهما تسلق الجنود منصة تمثال الطاغية التي تتوسط فناء المكتبة وهم يوثقونه بالحبال التي شدت اطرافها الاخرى الى فوهة المدفع الطويل للدبابة الجاثمة على مقربة من المنصة، حيث تم اسقاطه وجره الى الارض وسط تجمع عدد من الناس.

وفور انهاء مهمتهم ومغادرتهم المكان انتبه فجأة الى السنة النيران تنبعث من الطابق الثاني الخاص بالوثائق والارشيف، كذلك اكتشف النيران بعد دقائق داخل القبو وشاهد عددا من الاشخاص يتنقلون هنا وهناك بذعر، وثمة فريق من الاعلاميين يعملون كمراسلين لشبكة (نيو يورك تايمس) قد غادروا المكان قبل وقوع الحادث بدقائق وهو يحملون معهم حقيبة كبيرة محملة بالوثائق والمجلات القديمة.

وعود وعود

* اتظن انهم احرقوا المكتبة او سرقوها؟

. لا استطيع الجزم بالحرق، إلا ان المؤكد انهم سرقوا. وخلال ذلك انضم الينا السيد امير علوان الذي كانت لديه مشاهدات عدة بهذا الشأن حدثنا عنها قائلاً: كوني تطوعت منذ الايام الاولى للحرب مع اخوتي لحماية المكتبة ولتعذر مغادرة البيت او الرجوع اليه في ذلك الوقت اقتضى بقاؤنا هنا للحراسة وللحماية بشكل واجبات متناوبة. وبالرغم من حدوث الحرائق في يومي ٤/١٠ و ٤/١٤ إلا ان المكتبة تعرضت لحالات سطو عديدة من قبل اللصوص والمخربين الذين كانوا يكمنون في الظلام لكنها جميعها باءت بالفشل بفضل يقظتنا وحراستنا المشددة.

* ما هو موقف قوات التحالف مما كان يحدث؟

. زارنا بعد تلك الاحداث بعدة ايام الجنرال (لامبرت) ممثل الحاكم العسكري السابق (جي غارنر) للشؤون الثقافية لأجل الاطلاع على الوضع، وابدى ارتياحه وتشجيعه لنا لقيامنا بمهمة حماية المكتبة، ووعد بارسال عدد من جنوده لمساعدتنا في الحراسة. كما تحدث عن اعمار المكتبة والسعي الى اعادة ما سرق منها. وبعده بايام، جاء مسؤول امريكي آخر هو (كاسل) وقام بجولة في طوابق البناية ودعي السيد عباس الحسيني، الذي حافظ على المكتبة، للاجتماع بـ(جي غارنر) الذي كان يقيم في فندق الرشيد للتباحث حول الاضرار التي لحقت بالمكتبة، لكن ايا من الوعود التي قطعوها على انفسهم لم ينفذ منها شيء الى هذا اليوم).

نبذة عن تاريخها

يعود تأسيس المكتبة الوطنية في بغداد الى عام ١٩٢٠، وكان اول من دعا الى تأسيسها ثلة من الادباء والمفكرين والعلماء العراقيين في ذلك الوقت تزامناً مع هواجس تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١.

وبعد مداولات وتشاور ابتدأ مشروعهم بنقل وتجميع ما لديهم من كتب وما ورد اليهم من مساعدات وتبرعات عدد من المثقفين وعلماء الدين والخيرين، وتم وضع حجر الاساس لانشائها بعد اتخاذهم احد البيوت مقراً لها في منطقة العيواضية، بدواعي الحاجة الى مكتبة عامة تؤدي خدماتها لمن شاء من طلاب العلم والمفكرين وعموم القراء. وسميت آنذاك (مكتبة دار السلام)، ولعدة عقود ظلت كانت تمارس دوراً ثقافياً بارزاً، وخلال ذلك تطورت واخذت في الاتساع بما احتوته خزائنها من كتب غطت العديد من الاختصاصات وحقول المعرفة والعلوم والأدب، وتزايدت اعداد روادها بما حظيت به من اهمية رسخت شهرتها كاحد معاهد المعرفة، الامر الذي لفت انظار الدولة العراقية لتصدر قراراً بضمها الى مؤسساتها عام ١٩٦١. وبعد صدور هذا القرار اصبحت تسمى (المكتبة الوطنية). وتم نقلها الى حي الوزيرية عام ١٩٧٧ بمبنى حديث اكثر اتساعاً يتناسب مع تطور المكتبة والتغيرات التي طرأت عليها، بعد ان راح يؤمها كثير من الباحثين والدارسين والطلاب والعلماء والمثقفين، كما امتدت علاقاتها مع المكتبات العربية والعالمية.

الاضرار ما بين ٣٠ إلى ٤٠ بالمئة

حملنا العديد من الاسئلة وتوجهنا الى الاستاذ كامل جواد عاشور وكيل المدير العام لدار الكتب والوثائق. سألناه ان يحدثنا عن حجم الخسائر التي لحقت بالمكتبة، وعن اعادة اعمارها، فأجاب: حرائق المكتبة تركت دماراً في معظم محتويات الدار في كلا الطابقين الاول والثاني وكذلك الطابق الارضي، فهناك اجهزة بتقنيات حديثة واجهزة الحاسوب والمايكروفيلم وكثير من الكتب والوثائق قد احرقت ودمرت تماماً. ويقدر حجم الاضرار ما بين ٣٠ الى ٤٠ بالمئة، فضلاً عن فقدان معظم الكتب والوثائق النادرة التي لا تعوض. اما انقاذ ما تبقى من المكتبة فقد كان بجهود فئة مخلصة تطوعت لانقاذها وحمايتها من طلبة الجامعة الذين كانوا من روادها الدائمين، حيث افلحت جهودهم بالحفاظ على اعداد كبيرة من الكتب والوثائق ونقلها الى (جامع الامام علي (ع) في مدينة الصدر باشراف من الحوزة العلمية. وبعد مدة من توقف الحرب اعيدت الكتب الى الدار حيث ترافق ذلك مع عودة الموظفين والمباشرة بحفظ الموجودات وتنظيمها. كما وضعت حراسات دائمية.

. وماذا حصل بشأن نقل المكتبة الى مكان آخر؟

. نيران المخربين اثرت على البناية بصورة عامة واصبحت جميع مرافقها ومفاصل البناء غير صالحة للاستخدام، لذلك بدأنا بالتفكير بنقل دار الكتب والوثائق الى بناية اخرى. وبعد البحث الطويل وقع نظرنا على بناية (نادي القادة) في منطقة الكسرة. وتم عرض المقترح على مسؤولي وزارة الثقافة والامريكان المشرفين على الشؤون الثقافية. وبعد قيامهم باستطلاع المكان قبل المقترح وتم الاتفاق مع الاطراف المعنية. إلا ان البناية كانت مشغولة من قبل القوات الامريكية طوال الفترة الماضية، وبعد مغادرتهم مؤخراً، كلف فريق عمل من المهندسين التابعين الى وزارة الثقافة وآخر من وزارة الاسكان والتعمير للقيام باعمال الترميم لان البناية تعرضت الى بعض اعمال التخريب. وبرغم تسلمنا للبناية، إلا ان نقل المكتبة لن يتم إلا بعد الانتهاء من اعمال الترميم وتهيئة المكان تماماً.

. تناقلت بعض الصحف في تلك الايام قيام رعد بندر شاعر الطاغية والمدير السابق للدار بسرقة بعض مخطوطاته.

. نعم سرق الكثير، حيث شوهد وهو يحمل عدداً من اجهزة الحاسوب التي تحوي ملفات مهمة، وصناديق كارتونية تضم الكثير من الكتب حملها بسيارة الدائرة (بيك اب دبل قمارة)، ولم يقم باعادة المسروقات التي بحوزته اضافة الى سيارة الدائرة حتى الوقت الحاضر!!